الفصل الثاني

توظيف التراث الديني

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني
توظيف التراث الديني

لجأت الكاتبة إلى اقتباس النص القرآني، بوصفه خطابًا فنيًّا، يتمتع بخصوصية فنية، أو موضوعية تجعله قابلاً، أيضًا، للاستيعاب، والامتصاص، والتماس مع نصوص أخرى لاحقة، لإيجاد علاقة حوارية بينه وبين نص جديد، وليكون للنص الجديد موقف محدد إزاء هذا التماس، ويلمس القارئ من روايات ديمة السمان، تماسًّا مباشرًا وغير مباشر مع النص القرآني، كما نجدها أحيانا تقتبس من التراث الديني النصراني، وحتى اليهودي أيضًا.

توظيف التراث الديني الإسلامي

أولاً: الآيات القرآنية: من ضمن التوظيف الديني قول الكاتبة: "لقد توكلت على الله وحزمت أمري.. فلا تكونوا مناعين للخير.."([13]).

([13]) ديمة السمان، الضلع المفقود، 10؛ تكرر هذا التوظيف في برج اللقلق، 1/ 111؛ كما تكرر في برج اللقلق، 2/ 52.

obeikandl.com

وهنا نرى تأثرها الواضح بالقرآن الكريم، وجاء التأثر باللفظ المستخدم، والمعنى المقصود أيضًا، أمّا تأثرها بالمعنى، فقد بدا واضحًا من المقصود في هذا النص، وهو أن الشخصية تريد إقناع محاوريها بأنها على حق، وأن قرارها جاء منطقيًّا، ومدعمًا باللفظ القرآني، الذي من شأنه جعل الطرف الآخر يرضخ لرغباتها، كما أنها تعبر بذلك عن استنكار الناس لفعل كبيرهم (سليم العطار)، عندما أقدم على زواجه من امرأة غريبة، لا أهل لها ولا عزوة، فالكاتبة تريد تبيان ذلك الموقف الرافض؛ بأنه موقف أناني يقف حاجزًا أمام فعل الخير، وقد ورد هذا اللفظ في الآيتين الكريمتين: ﴿مَنَّاع لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾[14]، و﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[15].

كما استخدمت ألفاظًا من النص القرآني عندما تقول: "كانت تنظر إليهم باستغراب تستنكر جحودهم.. فتحدث نفسها إنهم ما زالوا بخير أفلا يشكرون"[16].

---

[14] ق، 50/ 25

[15] القلم، 68/ 12

[16] ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 20.

obeikandl.com

تساءلت الكاتبة بهذا السؤال الاستنكاري؛ للتعبير عن استغرابها وسخطها من ردة الفعل الناكرة للجميل تجاه ما قدمته لهم (عنبرة)، زوجة (سليم العطار) زعيم الحي، التي لم تأل جهدًا في مساعدة الناس في وقت المجاعة آنذاك، وباستخدامها اللفظ القرآني هنا كانت موفقة، وخدمت النص الروائي، وساعدت على إيصال الفكرة بشكل جلي، ورد هذا اللفظ في الآيتين الكريمتين: ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[17]، و﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[18]

وتلجأ إلى استخدام كلمات لها إيقاعٌ قرآنيٌّ بقولها: "والله لو أُوتيتُ السحر لقلبتك حمارًا يحمل الأرزاق من بيتك إلى كل بيت جائع في حينا"[19]. نجد تلك الألفاظ في قول رب العالمين تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[20].

([17]) يس، 36/ 35.

([18]) يس، 36/ 73.

([19]) ديمة السمان، م. س.، ص 28.

([20]) الجمعة، 62/ 5.

obeikandl.com

أرادت الكاتبة من الاستعانة باللفظ القرآني؛ أن تبين مدى جهل الناس في تلك الأوقات بالعلم والطب بشكل خاص، بحيث اتهموا (عنبرة) بالسحر والشعوذة.

نجحت الكاتبة في دمج تلك الألفاظ ضمن نسيجها الفني بطريقة جعلتنا لا نشعر بهذا التوظيف بسهولة.

ومن ضمن التوظيف الديني، قولها: "فوالله لولا إرادة الله أدركتك لكنت الآن تقبع في غياهب الجبّ كما فعل أولاد يعقوب بأخيهم يوسف."([21]) وهذا يتوافق في معناه ولفظه بما جاء في سورة يوسف- عليه السلام-: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾([22]).

عبّرت الكاتبة عن فكرتها من خلال حوار شخصياتها باستخدام معلوماتها النابعة من قصص القرآن الكريم، فجاء تعبيرها في مكانه، وخدم النص السردي، وأعطاه زخمًا وقوة.

([21]) ديمة السمان، الضلع المفقود، 31؛ وقد تكرر هذا التوظيف بوقع الحافر على الحافر في رواية الأصابع الخفية، 25.

([22]) يوسف، 12/ 10

كما نلاحظ الاقتباس من القرآن في قولها: "يعيث بها فسادًا"[23]. ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[24]

لكنها هنا لو استعملت كلمة يسعون كما جاءت في القرآن الكريم لكان وقعها أجمل، واتسع المعنى لتصل به إلى حدود مراميها.

ودعّمت النص بكلمات من القرآن الكريم، عندما قالت: "والغد في علم الغيب.. ولا يعلم الغيب إلا الله"[25]. نجد معنى ذلك في الآية الكريمة: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[26].

جاء هذا النص على لسان (عنبرة) وهي تحاور زوجها (سليم العطار) لتثبت له أن قومه غير جديرين بالثقة، وأنها لا تهتم بشيء في الوقت الحاضر إلا بابنها (عيّاش)، لأنها على ما رأت من قوم زوجها أصبحت لا

---

(23) ديمة السمان، م. س.، ص 31.

(24) المائدة، 5/ 64.

(25) ديمة السمان، م. س.، ص 34.

(26) الأنعام، 6/ 59.

تثق بهم، ولا تدري ما يخبئه لها الزمن، وقد جاء توظيف الكاتبة توظيفًا موفقًا أثرى النص.

وظفت الكاتبة ألفاظًا قرآنية لدعم فكرتها في حوارات شخصية الرواية المتعصبة الشريرة (شداد)، لتبيان مدى حقده وصلابته وجبروته من (آل لقمان) عندما أجاب في حواره مع (سليم العطار)، الذي كان يحاول تهدئة الموقف قائلاً له: "العقل والعدل والقانون يقول: العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم.."[27].

فالكاتبة بذلك، تعرفنا إلى طباع الشخصية، وصفاتها النارية الشريرة، وعدم سماحتها، فكان توظيفها ملائماً لواقع الحال. ورد هذا المعنى في الآية الكريمة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[28]

([27]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص41؛ تكرر في الضلع المفقود، ص288؛ وتكرر في جناح ضاقت به السماء، ص81.

([28]) المائدة، 5/ 45.

نلمس بسهولة ما ترمي إليه الكاتبة، من أن بعض الناس يستشهدون في كلامهم بآيات من القرآن الكريم لتأثير وقعها على الناس، وهم بذلك يستغلون هذا التأثير لبثّ سمومهم القاتلة خلال كلامهم، فتنطلي أساليبهم الخبيثة على الناس الذين يتجرعون السم الممزوج بكلامهم المعسول، فيمررون ما يريدون من أفكار تؤدي إلى الفتن، لتحقيق أهدافهم الفردية الضيقة.

ومن الاقتباس القرآني أيضا قولها: "عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. صدق الله العظيم"[29]. وهي تريد بذلك أن تقول على الإنسان أن يصبر ويتأنى في حكمه، وفي ردات فعله على مشكلاته ومآسيه الخاصة. فالآية القرآنية الكريمة تحقق بمعانيها ما أرادته الكاتبة على الرغم من أنها وضعتها صريحةً في متن النص الروائي: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[30].

تريد الكاتبة أن تصور الحالة النفسية المتأزمة عند (عياش)، وأن الجد يرغب في طمأنته ورفع معنوياته، بأن أحضر له خبرًا من شأنه أن يشفيه

([29]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 65.

([30]) البقرة، 2/ 216.

من حالته النفسية، وأن يخرجه مما هو فيه، وأن يبعد الخوف والألم نتيجة بعده ألقسري عن محبوبته (مريم)، فجاء هذا التوظيف مناسبًا وملائمًا لجو النص. وعندما قالت: "إن لك قلبًا طيبًا وخلقًا عظيمًا"([31])، فهذا اقتباس واضح لألفاظ القرآن الكريم، أرادت به الكاتبة إثراء النص، وتدعيم الفكرة بأن (مريم) فتاة خلوقة على قدر كبير من الاحترام. نجد هذا المعنى في الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾([32]).

استخدمت الكاتبة كثيرًا من الألفاظ القرآنية التي أثرت النص الروائي، وأعطته قوة ومساحة كبيرة من المرامي والأهداف، فقد قالت على لسان الجد مخاطبًا (عائشة): "لماذا تحرقين نفسك بنار وقودها.."([33]). نجد هذا اللفظ في الآيات الكريمة: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾([34])، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾([35]).

([31]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 71.

([32]) القلم، 68/ 4.

([33]) ديمة السمان، م. س.، ص 83.

([34]) البقرة، 2/ 24.

([35]) التحريم، 66/ 6.

تبين الكاتبة بأن الغَيرْة من شأنها أن تؤجج النار في قلب من يحملها، خصوصًا وأن (عائشة) هنا تحب (عياش) من طرف واحد، وهو بدوره يحب (مريم) ابنة (المهراجا)، ولذلك فإن غيرتها على عياش لها آثار مدمرة على الجميع وخصوصًا على نفسها.

نجحت الكاتبة في وصف الحالة ونتائجها باستخدام تلك الألفاظ المستقاة من القرآن الكريم.

ويتكرر التوظيف الديني عندما قالت: "فتحملينا ما لا طاقة لنا به.."[36]. ورد هذا اللفظ في الآية الكريمة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[37]

أرادت أن تبين لنا مدى حالة الخوف التي كانت سائدة بين أفراد عائلة جد عياش من العلاقة الغرامية بين (مريم) ابنة (المهراجا) و(عيّاش)، معتبرين أن تلك العلاقة من شأنها أن تعود بالخطر على عائلة

([36]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 84، 222؛ تكرر في برج اللقل، 2/ 63.

([37]) البقرة، 2/ 286.

الجد التي كانت عائلة فقيرة، بينما (المهراجا) هو صاحب النفوذ الآمر الناهي في المنطقة، الذي يستطيع بكلمة منه تشريدهم من بيوتهم، وأراضيهم، والتنكيل بهم، إذا عرف عن تلك العلاقة الغرامية، وأن استخدام الكاتبة للفظ القرآني المستمد من الآية المذكورة ساعد كثيرًا في إيصال الفكرة وخدم النص الروائي بشكل كبير.

ويستمر التوظيف الديني في نصها الروائي، ولكن على لسان (شداد) هذه المرة، وهي الشخصية الشريرة في الرواية، الذي يهدف من استخدامه إقناع مستمعيه بوجهة نظره، ولبثّ الحماس في نفوسهم، عندما قال: "وتركوا الجهاد وباعوا الدنيا بالآخرة.."([38]).

ورد هذا اللفظ في الآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾([39]).

إلا أن شدادًا يرمي إلى مصلحته الخاصة، وليس الهدف من استخدام اللفظ القرآني خدمة مجتمعه المسلم، وهنا أقف على فكرة تستوطن خلف النص وهي رؤية الكاتبة لبعض القيادات السياسية التي تستخدم ألفاظًا

([38]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 109.

([39]) البقرة، 2/ 86.

obeikandl.com

من القرآن الكريم كجسر لتمرير أهداف سياسية لا تهدف خدمة مجتمعاتها بأي حال من الأحوال.

ومن ضمن التوظيف، أيضًا، قولها: "قال تعالى: القاتل يقتل.. صدق الله العظيم"(40).

لكن الكاتبة أخطأت عندما اعتبرت هذه المقولة قرآنًا، وما وصفته بكلام الله ما هو إلا لفظٌ عاديٌّ ليس إلاَّ.

وصفت موضوعات الحوار والألفاظ التي كان يتستر خلفها أصحاب المصالح الشخصية الضيقة في ذلك الوقت، وكيف تتغذى الفتنة وتتفشى بين أبناء المجتمع، وكيف يستغلون ذكر الشريعة وقوانينها لإقناع الناس البسطاء بأفكارهم الهدامة، فـ(شداد) الذي على لسانه قالت: "نحن طبقنا الشريعة"(41)، ما هو إلا عنصرٌ هدامٌ في المجتمع لا يهتم إلا بمصلحته، ومنفعته الشخصية، وهو بعيد كل البعد عن المصلحة العامة، فنراه هنا يحتج بألفاظ القرآن الكريم متسترًا خلفها بقناع من يسهر على مصلحة الجماعة، والكاتبة تُعبِّر من خلال هذا الحوار عن وجهة نظرها الشخصية بما كان يجري في المجتمع المقدسي آنذاك،

(40) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 112.

(41) ديمة السمان، م. ن.، ص 112.

obeikandl.com

ونجحت في ذلك وجعلتنا نغوص معها في غياهب ذلك الزمان بكل تفاصيله، بل إنها نقلتنا، أيضًا، إلى المكان ذاته في حارات وأزقة البلدة القديمة من القدس الشريف.

يتكرر اقتباسها من القرآن في قولها: " لقد بلغني الكبر.."[42]. ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[43].

في هذا التوظيف أرادت الكاتبة إثبات الحالة النفسية والاجتماعية لإحدى شخصياتها الرئيسة، وهو (سليم العطار) الذي فقد زوجته ولم يكن له ولدٌ، ما أثّر على نفسيته، خصوصًا وأنه ثريّ ذو مكانة رفيعة في القدس، ولا يوجد من يرث مكانته وأمواله، ولذلك كان القلق باديًا عليه، فحققت الكاتبة مراميها بهذا التوظيف، وقد تداخل مع النسيج الروائي بشكل متناسق.

ويظهر التوظيف الديني، أيضًا، عندما يُحدّث (عيّاش) نفسه قائلاً: "وكأنه ليس للبيت صاحب ولا للبيوت حرمة.."[44]. استمدت هذا

([42]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 118.

([43]) آل عمران، 3/ 40.

([44]) ديمة السمان، م. س.، ص 121.

المعنى من الآية الكريمة: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَّ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[45]، حيث أرادت الكاتبة أن تبين لنا بأن (عياش) قد دخل قصر (المهراجا) خلسة بصحبة محبوبته (مريم)، وأنه ليس من خُلق المسلمين، وكان عليه مراعاة حرمة البيت والدخول من الباب، في وضح النهار وبعلم صاحب البيت، وقد كان لهذه الإشارة رسالة تربوية.

وعندما قالت: "كنتم كثرة فأصبحتم قلة بعد أن حصدت الحرب رجالكم.. كنتم أغنياء فأصبحتم فقراء، بعد أن أخذت الحرب أموالكم.. كنتم كبارًا فأصبحتم صغارًا نتيجة سوء أعمالكم.. لقد أغواكم الشيطان يا آل العطار.."[46]، فإن ذلك يذكرني بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُّ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[47].

نجدها تستخدم الطباق الإيجابي في وصف الوضع الاجتماعي، والسياسي، الذي آلت إليه الأمور، عندما رجع عياش من الهند، فالحالة

([45]) البقرة، 2/ 189.

([46]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 128.

([47]) التوبة، 9/ 25.

كانت مُرهقة جدًّا للناس؛ صراعات مستمرة بين العائلات المقدسية، وقتل، ونهب، وظلم الناس بعضهم بعضًا، حيث يخاطبهم (عياش) ساخطًا على ما صنعته أيديهم، التي صارت ملوثة بالدماء، فجاء توظيف اللفظ القرآني لربط الصورة بحقيقة فيها دروس وعبر، بين الآية القرآنية المذكورة، والتي نزلت بمناسبة هزيمة المسلمين في (غزوة حنين) حين أعجبوا بكثرتهم، وعائلته التي اغترّت بكثرة رجالها لتستبد في الحي كما يحلو لها، فأثرت الكاتبة نصها على الرغم من أسلوبها المباشر.

وعندما أرادت أن تبين الحالة التي وصل إليها المجتمع من الجهل والظلم؛ بقولها: "بين الخبيث والطيب"([48])، من خلال الحوار الذي جاء على لسان (أمينة) تلك المرأة القوية صاحبة الرأي والمشورة، وهي تحاول إقناع (عائشة) بالصبر والتحمل لأن الأوان قد آن لكي يميز الناس الخبيث من الطيب، وكان توظيفها موفقًا، وورد هذا المعنى في الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي

([48]) ديمة السمان، م. س.، ص 191.

كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[49].

أما عندما حاولت إقناع القارئ بأن الإنسان نفسه هو الذي يتغير وهو المسؤول بذلك عن تبعات تصرفاته، فقد اقتبست من القرآن قائلة: "إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"[50]، وجاء الاقتباس مناسبًا لموضوع الحوار الذي كان بين عائشة، التي تغار على زوجها غيرة كبيرة، والزوج المتعالي على حب زوجته، حيث جاء التوظيف متماشيًا مع قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[51].

ويتكرر الاقتباس القرآني بشكل مباشر وصريح عندما تقول على لسان (الجد) في محاولة منه لتهدئة حفيدته (عائشة) قائلاً لها: "الله يعلم الظاهر وما يخفى"[52].

([49]) الأعراف، 7/ 157

([50]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 217.

([51]) الرعد، 13/ 11.

([52]) ديمة السمان، م. س.، ص 225.

وقد ورد هذا اللفظ في الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾(53).

اتكأت الكاتبة على هذا الاقتباس على لسان الجد الحكيم، لتطلعنا على الحالة البائسة التي وصلت إليها (عائشة) مع زوجها، فكان التوظيف مفيدًا.

وعلى لسان (مريم) محبوبة (عيّاش) وفي حوار عائشة مع نفسها بعد أن تركها عيّاش ليغيب عنها أسبوعًا بكامله قالت: "يا صبر أيوب"(54)، وهذا اللفظ الذي يستعمل كمثل، هو في الحقيقة مستنبط من قصة النبي أيوب- عليه السلام- النبي الذي تحمّل صنوف الآلام، وصبر، ولم يشكُ مصابه، وورد ذكره في الآيات الآتية:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(55).

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(56).

---

(53) الأعلى، 87/ 7.

(54) ديمة السمان، م. س.، ص 235.

(55) ص، 38/ 41.

(56) ص، 38/ 44.

استفاد النص من هذا التوظيف، إذ ساعد الشخصية الروائية (مريم) بالتعبير عن نفسها بأنها لا تستطيع البعد عن حبيبها (عيَّاش) من جهة، ولم تكن تتحمل تأجيل انتقامها من غريمتها (عائشة) من جهة أُخرى، فمريم بحاجة إلى الصبر، حتى يحين الوقت المناسب للانتقام. وقد استحسنتُ هذا التوظيف الذي عبرت به الكاتبة عن فكرتها في تصوير حالة الشخصية في الرواية فجاء في خدمة النص بشكل جيد. لكنها عندما تستخدم لفظة أبتِ بقصد التحبب وإظهار احترام الابن لأبيه بقولها: "يا أبتِ.."([57])، فإنها استطاعت أن توصل رسالة جميلة فحواها طاعة واحترام الأبناء لآبائهم، مثلما قال يوسف لأبيه كما في الآية الكريمة: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾([58]).

إن هذا التوظيف بما فيه من بلاغة قد خدم النص الروائي ويسَّر المعنى.

([57]) ديمة السمان، القافلة، ص 9.

([58]) يوسف، 12/ 4، 100؛ مريم، 19/ 45،44،43،42؛ القصص، 28/ 26؛ الصافات، 37/ 102.

كما وظفت قصة الطوفان وهي من قصص القرآن الكريم بقولها: "قالوا يا أبي إنها كانت خضراء تملؤها الجنات.. نسي أهلها الله فأتاهم بالطوفان، فأصبحت بحارًا أهلكت أصحابها، وأتى الله بخلق جديد"([59])، فاستمدت هذا المعنى من قصص الأمم السابقة التي وردت في القرآن الكريم:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾([60]).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾([61]).

استخدمت هذا التوظيف في نسج سردها الروائي، الذي أرادت به تفسير الزحف الصحراوي وحلول الجفاف مكان الأمطار، وذلك نتيجة غضب الله على الذين يتنكرون للخالق على نعمه، وقد وُفقت الكاتبة بهذا الاستخدام الذي ساعد على توفير عنصر التشويق.

([59]) ديمة السمان، م. س.، ص 9.

([60]) الأعراف، 7/ 133.

([61]) العنكبوت، 29/ 14.

obeikandl.com

تستشهد الكاتبة بألفاظ قرآنية لإثبات وجهة نظرها عندما تقول: "ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.."(62)، وقد اقتبست هذا اللفظ من الآية الكريمة: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(63).

فهي تصور الحالة العامة لجو الرواية، بأن للوحش حقًّا في معاقبة من تطاول بالاعتداء على أبنائه، وإنها أرادت لفت نظرنا إلى ما وصلت إليه الأمور في هذه الدنيا، بأن القوي يأكل الضعيف، والغني يسيطر على الفقير، وقد أجادت بهذا الاستشهاد، وأوجدت الحجة المفحمة لتثبت فكرتها.

وعندما تقول على لسان (همام) ذلك الشرير الكاذب موجهًا كلامه إلى (صابر) الرجل الصادق الشجاع: "قال تعالى.. ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم.."(64)، فإنها تنقل لنا واقع المجتمع الذي يحاول فيه المتسلقون والمدَّعون التطاول على شرفاء الناس لدرجة أنهم يتناولون في أحاديثهم

---

(62) ديمة السمان، القافلة، ص 20.

(63) البقرة،2/ 194.

(64) ديمة السمان، م. س.، ص 45.

بعضًا من ألفاظ القرآن الكريم، مستغلين تأثيرها السحري على نفوس الناس فيسترون بقناع التقوى والإيمان. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٦٥).

استطاعت الكاتبة بهذا الاقتباس، الذي وظفته في نسيج سردها الروائي، نقل الواقع الاجتماعي بحذافيره عبر نص مدعم بالشواهد الحية، إلا أن توظيف الكاتبة لهذه الآية في غير محله إذ معنى الآية: لا تجعلوا حلفكم بالله مانعًا لكم من فعل الخير.

وتستمر الكاتبة في التعبير عن رؤيتها الاجتماعية من خلال دعوتها لمقابلة العمل الطيب بالمثل، حيث تعاتب الذين يقابلون الحسنى بالإساءة، مثلما حصل مع شخصية الرواية (صابر)، الذي قدَّم للقبيلة خدمة كبيرة؛ بتخليصها من شرور (عبدون)؛ الشرير الذي أذاق القبيلة مرّ الأمور وعظائم الشرور، إلا أن شيخ القبيلة (الشيخ صالح) أمر بتوثيقه وإيداعه السجن بدلاً من مكافأته على صنيعه الطيب في القضاء على (عبدون) ما ولّد حسرة كبيرة عند القوم، وخصوصًا في قلب (حسناء) ابنة (الشيخ صالح)، التي قالت لأبيها: "ماذا فعلت يا أبي..

---

(٦٥) البقرة، 2/ 224.

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان"[66]. وهذا الأمر يتكرر يوميًّا في الحياة وبين الناس، وحذر منه رب العالمين بقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[67].

فكم من محسن يُساءُ له، وكم من خيِّر يتعرض للأذى والظلم، وقد أحسنت الكاتبة في الاعتماد على الاقتباس القرآني الذي زاد السرد الروائي قيمة دلالية.

وتؤكد الكاتبة بأن الواقع بما فيه من حياة يختلف كل الاختلاف عن الخيال، إذ تقول: "إنها أضغاث أحلام يا أبي"[68]، في محاولة من (حسناء) لإقناع والدها بأن (صابر) رجل من لحم ودم، وقد أثبت نفسه بمحاربة الشر والانتصار عليه، وهو بحسب المعطيات والدلائل لا يمكن أن يكون شريرًا، بل هو بوجه واحد يتميز بالطهر والشهامة، وما خلا ذلك فهو باطل، ولا يخرج عن كونه خيالاً، فاستخدمت اللفظ القرآني لتُلبس سردها الروائي ثوبًا تزين به نصها وتظلله بهالة دينية تكسبه هيبة ووقارًا،

([66]) ديمة السمان، القافلة، ص 54 و 236؛ تكرر هذا التوظيف في رواية الأصابع الخفية، ص 62.

([67]) الرحمن، 55/ 60.

([68]) ديمة السمان، القافلة، ص 63؛ تكرر هذا في الأصابع الخفية، ص 23 و 173؛ تكرر أيضًا في برج اللقلق، 1/ 120؛ تكرر أيضًا في برج اللقلق، 2/ 120.

ونجد هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾(69).

وأحيانًا كانت الكاتبة تقحم استخدام اللفظ القرآني إقحامًا، كقولها: "ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً"(70)، مستمدة هذا القول من قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(71).

لكنه خرج بعيدًا عن جو النص، وخالف السَّرد الروائي، فوضع القارئ في مطب جعله في حيرة من أمره، بعكس توظيفها حين قالت: "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"(72). مقتبسة ذلك من الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(73).

---

(69) يوسف، 12/ 44.

(70) ديمة السمان، القافلة، ص 67؛ تكرر هذا التوظيف في الأصابع الخفية، ص 31.

(71) الأنفال، 8/ 42.

(72) ديمة السمان، القافلة، ص 89؛ تكرر هذا التوظيف في برج اللقلق، 1/ 34.

(73) التوبة، 9/ 51.

obeikandl.com

لقد جاء التوظيف هنا مناسبًا لواقع الحال، فالكاتبة أرادت أن تصف صورة الوضع العائلي لِـ(صابر)، الذي تزوج من (حسناء) وكانت تفصل بينها وبين عائلتها مسافة كبيرة جدًّا، وإن من حقها أن تذهب لزيارة أهلها، وأن تغامر في تحدي مشاق وأخطار السفر، فلا أحد يعلم بالغيب.

وظفت الكاتبة مقولة قد يرددها بعضهم دون وعي لأنها تنافي ما جاء به القرآن الكريم، وهذه المقولة قد وردت في الحوار الروائي على لسان (سجين الكاهنة) عندما خاطب (صابر) قائلاً: "دع الخلق للخالق"(٧٤).

هذه المقولة تخالف في معناها مفهومًا إسلاميًّا وَرَدَ في القرآن الكريم في الآية الكريمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٧٥).

إلا أن توظيف هذه المقولة في سياق السرد الروائي لم يخلخله من ناحية فنية، ولكن المعنى سلبي جدًّا، فقد وضع الله شرطًا لكي يتحقق الخير في الأمة ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(٧٤) ديمة السمان، القافلة، 73.

(٧٥) آل عمران، 3/ 110

أما عندما عبَّرت عن ارتباط الممارسات الحياتية الاجتماعية بالموروث الإيماني، فإنها وظفت إحدى المعوذات: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾[76] في قولها: "عطاء ربي.. بسم الله.. قل أعوذ برب الفلق"[77]، لتبين مقدار الرزق الذي انهال على (شاهر)، لدرجة أنه خاف من الحسد، وجاء توظيف الكاتبة للآية الكريمة مناسبًا لتثبيت المقصد.

كما ذكرت بعض الألفاظ الدينية عندما قالت على لسان (حسناء): "شده من أذنه.. فبيت صابر البدوي لا يرضى عن شاب لا يؤدي فروض الله"[78].

لقد كان الحوار بين سلطان وعمه شاهر حوارًا متكلفًا، فالكاتبة وضعت نفسها موضع الواعظ المرشد، وهذا ما لا يجب أن تكون عليه، لأن الكاتب فنان روائي ينسج النص بطريقة ساحرة تجذب انتباه القارئ، وتشده إلى متابعة القراءة بنهم شديد، وهذا ما لم أجده في ذلك الحوار، وها هي ذي تحث على بِرِّ الوالدين عندما قالت على لسان (سلام): "بعيدًا عن قول الله- وبالوالدين إحسانًا- صدق الله العظيم"[79].

---

(76) الفلق، 113/ 1.

(77) ديمة السمان، القافلة، ص 103؛ تكرر التوظيف في برج اللقلق، 1/ 71، 115، 156.

(78) ديمة السمان، القافلة، ص 150.

(79) ديمة السمان، القافلة، ص 236.

obeikandl.com

نلاحظ أنها اقتبست اللفظ القرآني ووضعته في موضع الجملة المعترضة (–) وهذا خطأ في الترقيم، إلا أن توظيفها للآية الكريمة هو توظيف جيد قد خدم النص وأعطاه عمقًا. ورد هذا اللفظ القرآني في الآية الكريمة: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾(80).

أرادت من هذا التوظيف، أن تبين حالة الابن عندما يستيقظ ضميره، فإن الوازع الديني يحتم عليه الوفاء لوالديه مهما كانت المغريات، ومهما تفاقمت الصعوبات. كما إنها عبّرت عن الصورة الحقيقية لشعبنا الفلسطيني، الذي مزقه الشتات، فأبعد بين الابن وأبيه، والأخ وأخيه، وقد نجحت في هذا التوظيف لولا أنها استخدمت الأسلوب التقريري المباشر الذي يُذهب الإبداع، وأحيانًا توظف اللفظ والمعنى القرآني سعيًا منها لإكساب نصّها المصداقية والجدية عندما تقول: "ولا تنس أن الفُلك تسير بأمر الله.. وهو قادر.. كل شيء يسير بأمر الله.."(81). ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي

(80) الإسراء، 17/ 23.

(81) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 10.

الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(82).

ويتكرر التوظيف الديني عندما قالت على لسان أحد القراصنة: "الله يعلم الجهر وما يخفى.. وما نعلن وما نبطن"(83)، فاقتبست ذلك من الآية الكريمة: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾(84).

نلاحظ اقتباسها الآية كما هي، ولكنها أوردتها على لسان أحد القراصنة، الذين يغيرون على السفن، فيقتلون، وينهبون الأبرياء، ولذلك فإن توظيفها غير مقنع وغير مبرر فنيًّا، حيث جاء ضمن حديث شخصية لا تناسب أن تكون واعظة، لكن ربما تريد الكاتبة نقل واقع بعض الشخصيات، خصوصًا الذين يتسترون في ثوب الوعظ وهمْ في الحقيقة لصوص يمتصون دماء الناس بدم بارد.

ووظفت الكاتبة اللفظ القرآني عندما قالت على لسان (عناد): "اصبر.. وما صبرك إلا بالله.."(85)، ورد هذا اللفظ في الآية الكريمة:

---

(82) يونس، 10/ 22.

(83) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 10.

(84) الأعلى، 87/ 7.

(85) ديمة السمان، م. س.، ص 31.

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[86].

ساعد هذا التوظيف في إبراز ثقة (عناد) بنفسه، كما أنها استطاعت أن تصف ثبات الشخصية، وجعلتنا نحس بها كأنها تتحرك أمامنا بلحمها ودمها.

ويتكرر في الصفحة التالية من الرواية توظيفها للمعاني القرآنية عندما تقول على لسان (عناد) أيضًا: "لا تفعل شيئا الآن.. دعهم في غيهم يسبحون.. وسيعرفون غدا أنهم مخطئون.."[87]. وهذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[88].

فالكاتبة توظف معنى الآية القرآنية لخدمة السرد الروائي خصوصًا في الحوار بين الشخصيات الرئيسة، الأمر الذي خدم النص.

ويتكرر توظيفها للفظ القرآني عندما تقول على لسان (عناد): "الله يفعل ما يريد"، فهي بهذا الاستناد المستمر على الألفاظ القرآنية تعطي

---

[86] النحل، 16/ 127.

[87] ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 32.

[88] يونس، 10/ 11.

النص ظلاً من الجدية والموعظة الحسنة، وقد ورد هذا اللفظ في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(٨٩).

إنها تريد القول على لسان شخصيتها بأن الله هو الذي يسير الأمور وهو الرازق، بيده كل شيء، فجاء التوظيف موفقًا ومنسجمًا مع النص.

واستعانت بالقصص الديني بقولها: "لا تستكثر على الله شيئًا.. عندما ألقى الكفار بنبي الله إبراهيم في النار قال سبحانه: "يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم" .. وأنجاه الله من الحريق."(٩٠). ورد هذا في قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾(٩١).

اقتبست الكاتبة الآية القرآنية لتوظفها ضمن سردها، فهي تعطي رسمًا لشخصيتها الروائية، وإظهار تأثرها وممارستها الدينية، وتبين مقدرة الله على كل شيء، ولكنها أغفلت قضية مهمة هنا، بأنها قد صنعت مقارنة خاطئة بين شخصية (عناد) وبين النبي إبراهيم- عليه السلام، تمامًا مثلما

---

(٨٩) الحج، 22/ 14.

(٩٠) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 56؛ تكرر هذا التوظيف في الأصابع الخفية، ص189.

(٩١) الأنبياء، 21/ 69.

فعلت في الصفحات السابقة عندما قارنت الشخصية نفسها بالنبي موسى- عليه السلام([92]).

كما وظفت ما جاء في العقيدة الإسلامية، وخصوصًا ما يتعلق بقضاء الله وقدره، وذلك عندما قالت على لسان (عناد): "لو كان الإنسان يكتب قدره بيده ما رضيت لنفسي الغربة.. وما اخترت مواقف المذلة.. ولكن الإنسان مسير وليس مخيرًا.."([93]). فالإيمان بالقدر مبنيّ على الإيمان بأن الله قد علَّم الخلق، وقدّر ما يفعل الناس وحفظه في كتاب محفوظ، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، فلا يتحرك في الكون شيء إلا بإرادته، فهو الخالق لكل شيء، وهو الذي خلق الخلق، وخلق أفعالهم أيضًا، وقد ورد هذا المعنى في كتابه العزيز: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾([94]).

أرادت الكاتبة من هذا التوظيف أن تبين لنا مدى تأثر (عناد) من واقعه المذل، فهو لم يختْر هذا الواقع إنما دفع إليه بقدرة الخالق عز وجل:

([92]) ينظر: ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 49.

([93]) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 67؛ تكرر ذلك في جناح ضاقت به السماء، ص81.

([94]) الأنعام، 6/ 59.

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(95).

كما أننا نتعرف من خلال هذا التوظيف الذي جاء على لسان بطل الرواية إلى أفكار الكاتبة، وما تحمله من عقيدة يظللها الإيمان بالقضاء والقدر، وقد أجادت بهذا التوظيف، وعززت من عمق النص.

اقتبست الكاتبة الآيات القرآنية في وصف الغابة وأشجارها عندما قالت على لسان (الراوي): "وكانت الشمس قد بدأت تطل من الغابة.. وتتسلق أشجارها الطويلة.. إلى أن استقر قرصها الذهبي على قمة شجرة بلح قطوفها دانية"(96). ورد هذا اللفظ في الآية الكريمة: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾(97)، فالشجرة التي وصفها القرآن الكريم في هذه الآية لا تنطبق أوصافها على شجر الدنيا، لأن ثمار أشجار الجنة يستطيع الناس قطفها وهم نائمون، فثمرها قريب وليس بعيدًا عن أحد، فأين من هذا الشجر من أشجار الدنيا الفانية؟!

(95) التغابن، 64/ 11.

(96) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 69 و23.

(97) الحاقة، 69/ 23.

obeikandl.com

وظفت الكاتبة قصة سيدنا موسى- عليه السلام- عندما عبر البحر هاربًا من بطش فرعون حين قالت: " بل كان قويًّا .. كعصا موسى.. فتح البحر.. فاستوليت على الجوهرة.. وحملني فوق أخطار الدنيا.. وجاء بي سليما معافى إليك.."(٩٨)، فاستمدت هذه القصة من قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾(٩٩). أرادت بهذا التوظيف إثبات شدة محبة الأميرة لـ(عناد)، لكن استنادها إلى هذا التمثيل لم يكن مناسبًا، خصوصًا وأنها وصفتْ (عصا موسى) بالقوة وهي ليست كذلك، إنما كانت وسيلته لإثبات معجزته الربانية، فالقوة المادية هنا لم تكن واردة بمقدار قوة السحر، ولذلك فإن توظيفها كان مقحمًا.

في إشارة من الكاتبة إلى استهتار الناس بتاريخهم وتراثهم الأسطوري، وعدم استفادتهم من حكمة الأجداد، وعدم اتعاظهم بعثرات الماضي، نراها تتكئ على المعاني القرآنية في قولها: "أهملتم حكمة الأجداد فبهتت الخطوط على الكتاب.. كما بهت وجودكم في البلاد.. فاتعظوا يا أولي

(٩٨) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص 188؛ تكرر هذا التوظيف في برج اللقلق، 1/ 21.

(٩٩) الشعراء، 26/ 63.

الألباب"[100]، فاستمدت المعنى من قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[101].

لقد نسوا تراثهم، وفرطوا في مقدراتهم وأوطانهم، وهو ما يحدث فلسطين، بعد أن سيطر الاحتلال الصهيوني على البلاد، ونهب خيراتها دون مقاومة حقيقية، فالذي لا يدافع عن حقه في الوجود، فإنه لا معنى لوجوده أصلاً، ولا يضيع حقّه فقط، بل يضيع هو كذلك، فاستخدمت الرمز المحتمل، واتكأت على معاني الآية القرآنية المذكورة باستخدام بعضٍ من ألفاظها، وقد أفادت النص الروائي بهذا الاستخدام وجعلته قريبا من ذوق القارئ.

استخدمت الكاتبة بعض الألفاظ على أنها قرآن كريم وهي ليست كذلك؛ عندما قالت على لسان (حمدان): "قال تعالى: ولا ترموا بأنفسكم إلى التهلكة"[102]

لقد أخطأ (حمدان) في الآية القرآنية التي استشهد بها أمام عمه مبررًا تخاذله وجبنه، فهذه الشخصية المتهاونة، التي لا تتحلى بالأخلاق، أو

([100]) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 8 و 9.

([101]) الزمر، 39/ 9.

([102]) ديمة السمان، م. س.، ص 35.

الإنسانية، هي أنموذج لهذا النوع من شخصيات المجتمع على أرض الواقع، فهو أناني، وجبان، ومدَّعٍ، وقد قصدت الكاتبة أنه يخطئ حتى في قراءة الآية، لتقنعنا بجهله، ولترسم لنا طباعه، فالآية التي استعملت الكاتبة ألفاظها جاءت على هذا النحو: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(103). أي لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بعدم إنفاقكم في سبيل الله، فامتناعكم عن الإنفاق يهلككم، وإنفاقكم ينجيكم.

كما استخدمت اللفظ القرآني لمساعدتها في رسم شخصيات الرواية عندما قالت: "سلاحي عصاي هذه.. أهش بها على غنمي.. وتساعدني على المشي في مسالك الجبل الوعرة"(104)، فهي تعبر عن قوة الشخصية للفتاة البدوية الواثقة من نفسها، وهي لا تقصد الفتاة (نفوذ) بذاتها، إنما تشير إلى أن الفتاة العربية إذا ما أعطيت الفرصة فإنها تثبت جدارتها في كل الميادين، فأصعب مهنة هي مهنة الرعي، وكثيرًا ممن عملن في هذه المهنة قد توجهن إلى التعليم بعد أن تخرجن من الجامعات يحملن التخصصات المختلفة، وقد أثبتن جدارتهن في مختلف المجالات الحياتية،

---

(103) البقرة، 2/ 195.

(104) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 96.

فهي تشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾[105].

وقد استخدمت الكاتبة اللفظ القرآني لما له من تأثير إيجابي على مجمل النص، فلَه وقع جميل ومعنى عميق، فأثرى النص بهذا، وجعله نصًّا متفاعلاً مع المعنى المقصود بشكل عفوي لا إقحام فيه.

كما وظفت اللغة المكثفة التي يتميز بها القرآن الكريم بقولها: "تُحيينني ثم تُميتينني يا نفوذ.. أي ظالمة أنت؟ لا أفهم.. طعامك بعد أن كاد الجوع يقتلني.. وحبك يقتلني بعد أن شبعت معدتي وتعلقت روحي بك.. الله وحده الذي يحيي ويميت يا عبود"[106]، فقد استمدت هذا اللفظ من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾[107]. إنها تثبت قوة العلاقة، ومتانتها، وتطورها السريع بين (عناد) و(نفوذ)، والتي تبني الكاتبة عليها مجمل روايتها تقريبًا، وقد خدم هذا التوظيف النص وارتقى به، فقد صورت الكاتبة (عبود) وهو في المغارة، لا حول له ولا

([105]) طه، 20/ 18.

([106]) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 43.

([107]) الأعراف، 7/ 158.

قوة، على حافة الموت من شدة الجوع، حتى أتت (نفوذ) الفتاة البدوية باحثة عن عنزتها، فوجدت (عبود) في المغارة وقد احتفظ بالعنزة، ثم تنشأ بينهما علاقة حب قوية؛ صارت (نفوذ) على إثرها تأتي إلى المغارة كل يوم بالطعام إلى (عناد) الذي كان هاربًا من المحتل الصهيوني.

ويتكرر الخطأ الشائع عند عامَّة الناس في قولها: "وجعلنا لكل شيء سببًا"... صدق الله العظيم"(108)، فهذا ليس بقرآن، وإنما عبارة تتردّد على ألسنة الناس على اعتبار أنها قرآن، وهي ليست من القرآن الكريم، وقد أخطأت الكاتبة باعتبارها من القرآن الكريم، إذ كان يجب عليها التثبّت بالرجوع إلى القرآن الكريم، حيث أن كلمة (سببًا) قد وردت في القرآن الكريم أربع مرات كلها في (سورة الكهف) في الآيات الكريمات: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾(109). ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾(110). ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾(111). ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾(112).

---

(108) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 43؛ تكرر هذا التوظيف، في برج اللقلق، 1/ 66؛ وتكرر أيضا في برج اللقلق، 2/ 28.

(109) الكهف، 18/ 84.

(110) الكهف، 18/ 85.

(111) الكهف، 18/ 89.

(112) الكهف، 18/ 92.

كما نرى أنَّ الكاتبة قد خلطت بين هذه المقولة "وجعلنا لكل شيء سببًا، وبين قوله تعالى عن (ذي القرنين): ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

هذا الخلط غير مقبول، خصوصًا وأنها كررت ذلك الخطأ في رواية (برج اللقلق) في جزئيها، إذ كان عليها توخي الدقة في التعامل مع اللفظ القرآني، أما معنى العبارة فهو صحيح، ومناسب لتوظيفه في خدمة النص، فإن الله عز وجل جعل لكل شيء سببًا، فالله أمر بأخذ الأسباب وفعلها.

وفي وصفها للحالة النفسية المتأزمة عند (عناد) بعد ترك (نفوذ) له، ليصبح وحيدًا مع هواجسه التي تتقاذفه بكل اتجاه، ما دفعه إلى حالة من الكآبة بقولها: "أفوّض أمري إلى الله"(113)، فلم يجد بعدها مخرجًا، إلا أن يترك مصيره إلى رب العالمين، فاقتبست المعنى من قوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهَّ إِنَّ اللهَّ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(114).

(113) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص104.

(114) غافر، 40/ 44.

تحاول الكاتبة إسقاط أفكارها الشخصية على شخصياتها بقولها: "القلب لا يجمع بين الضدين"[115]، مشيرة بذلك إلى قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[116].

فالإنسان لا يمكن أن يحمل في قلبه الكره والحب بالدرجة نفسها، وهذه الفكرة هي فكرة الكاتبة تسقطها على شخصيتها، وتقدمها للقارئ من خلال المرأة، وهذه إشارة من الكاتبة إلى أهمية دور المرأة في المجتمع الثقافي، فهي في رأي الكاتبة أكثر علما وحكمة من الرجل على الرغم من إنها أي (نفوذ) والتي تختفي خلفها شخصية الكاتبة نفسها، هي في الرواية راعية غنم، وفي الوقت نفسه على دراية بعلوم كثيرة، على غرار النساء العربيات اللواتي اتصفن بالحكمة، (كليلة الأخيلية)[117] و(ريا بنت الأعرف)[118]، فأحسنت الكاتبة في هذا التوظيف الذي خدم النص، ونقل الفكرة من قلب الكاتبة إلى قلب القارئ بصورة حسنة لا إقحام فيها.

---

[115] ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 109.

[116] الأحزاب، 33/ 4.

[117] ينظر: المرزباني، أشعار النساء، ص 36-58.

[118] ينظر: المرزباني، أشعار النساء، ص 59.

تناولت الكاتبة معاني اللفظ القرآني بقولها: "الزواج بالمحبة والرضا.. وليس بالغصب والتهديد.. هكذا يقول الشرع والدين.."[119].

وقد أكد القرآن الكريم على العلاقة بين الرجل والمرآة بما يتعلق ببناء الأسرة والزواج، وبأن الحياة الزوجية تظللها المحبة وتغلفها السكينة والرحمة، لا بالقوة والغضب والقسوة، وقد ورد هذا المعنى في مواطن كثيرة من كتاب الله وسنة نبيه، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[120].

تريد الكاتبة أن تُبيِّن موقف الأم كامرأة تثور على الظلم، وهي إشارة إلى دور المرأة القوية الرافضة للظلم، وهذا إسقاط واضح من الكاتبة على شخصيتها الروائية، فهي تبث أفكارها الخاصة متسترة بالشخصية، فالكاتبة نفسها شخصية اجتماعية تسعى للنهوض بدور المرأة في شتى المجالات، وهذا ما يظهر جليًّا في نصها الروائي، فهي تقول: "ثارت الأم وقالت: "نجوم السماء أقرب له من أن يمس ظفرك.."[121]. وقد وظفت

([119]) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 149؛ تكرر في برج اللقلق، 2/ 116.

([120]) الروم، 30/ 21.

([121]) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 149.

معاني اللفظ القرآني لدعم وجهة نظرها، فالمحبة والسكينة هي البيت الأساس للأسرة، وليس الحجارة والأبواب.

كما وظفت الكاتبة معاني اللفظ القرآني عندما قالت على لسان (أم عناد): "وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات.."[122]. ورد هذا المعنى في الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[123]. وظفت الكاتبة هذا المعنى للآية القرآنية لتثبت بأن للناس درجات في القدرة والتحمل، وبهذا التوظيف الذي جاء على لسان (الأم) إشارتان، أما الأولى فهي- الكاتبة- أرادت القول إنَّ الأم هي مثل أي أم مسلمة تستند في كلامها إلى آيات من القرآن الكريم، فقد وظفت الكاتبة معاني الآيات القرآنية أكثر من مرة في فقرة واحدة وعلى لسان الأم بالتحديد، فهي تقول: "إن سألتني أفعل كما فعل خادم سليمان عندما أحضر له عرش بلقيس برفة عين"[124]، فوظفت قصة سيدنا سليمان- عليه السلام- في قول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا

([122]) ديمة السمان، م. س.، ص 151.

([123]) الأنعام، 6/ 165.

([124]) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 151.

آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[125]

فهي المرأة القوية التي تستطيع عمل المعجزات، وهي هنا تمثل المرأة الفلسطينية، التي تناضل جنبًا إلى جنب مع الرجل لمواجهة الاحتلال الصهيوني، مدافعة عن الأرض، وهي أم الشهيد الصابرة، وأم الأسير رابطة الجأش، صانعة الأجيالَ الفلسطينية القادرة على حمل اللواء، فالمرأة الأم هي بعفويتها الإيمانية التي تدلي برأيها وتعبر عن موقفها بما تحفظه من القرآن، أو بما تفهم معناه، فتقوم بدور الناصح الراشد للأبناء، وهي الراعي التربوي لهم، والإشارة الثانية إنها تؤكد على دور المرأة الفلسطينية الميسرة لحياة الأسرة والتي تشكل اللبنة الأساسية لها.

أما عبود فيقول لوالدته مقتبسًا من القرآن الكريم، عندما قالت له: "ألا تثق بأم مسعود يا عبود؟: بلى.. ولكن ليطمئن قلبي"[126]، ورد هذا القول على لسان سيدنا إبراهيم- عليه السلام- عندما قال لأبيه كما في الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ

---

[125] النمل، 27/ 40.

[126] ديمة السمان، م. س.، ص 151؛ تكرر في برج اللقلق، 2/ 135.

تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(127).

فعبود يثق بما تقوم به والدته فهي قادرة على "إحضار عرش بلقيس"، وهي قادرة على تحقيق أحلامه، والكاتبة تعزز فكرتها مرة ثانية وثالثة... وعاشرة، في أن المرأة الفلسطينية المؤمنة، تستطيع تحقيق الأمن والسكينة لأبنائها ولأسرتها، فها هو ذا (عناد) يجد (نفوذ) أمامه برغم العقبات الكثيرة التي تقف بطريقه، فجاء التوظيف منسجمًا مع السرد الروائي الفني.

وقد وظفت اللفظ القرآني على لسان الأب، أيضًا، عندما قال والد (عناد) مخاطبًا (نفوذ): "دعيهم يتكلمون ويتآمرون.. فهم في غفلة عما يفعلون.."(128)، ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(129).

---

(127) البقرة، 2/ 260.

(128) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 152.

(129) مريم، 19/ 39.

أرادت الكاتبة أن تبين دور الأب من خلال هذا التوظيف؛ الأب الذي هو عماد البيت، الرحيم بأبنائه، ضابط للأمور حين يكون خلاف بين عناصر الأسرة، وقد نجحت الكاتبة في تحقيق هذا الأمر دون الإخلال بسير السرد الروائي الفني، بل على العكس من ذلك، فإنها أثرت السرد بذلك التوظيف.

اقتبست من اللفظ القرآني عندما قالت على لسان (نفوذ) التي توجه كلامها إلى زوجها (عناد): "يأتيكم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة"(130)، مستمدة هذا اللفظ من قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾(131).

فهي تبدي موقفها الخاص من خلال (نفوذ) الشخصية المحورية في رواية (جناح ضاقت به السماء)، عندما اقتبست من القرآن الكريم هذه الآية، لتقول لنا بأن الجميع مطالبون بالوقوف وقفة رجل واحد في الدفاع

(130) ديمة السمان، م. س.، ص 210.

(131) النساء، 4/ 78.

عن كرامتنا العربية في فلسطين[132]، وهي إشارة من الكاتبة إلى المقاومة الشعبية خلال الانتفاضة الفلسطينية الأولى، التي هب الشعب بجميع شرائحه الاجتماعية، والسياسية، في وجه المحتل الغاشم، وكسروا حاجز الخوف من جنود الاحتلال، بمقاومتهم له بالحجر المقدس، والعزيمة الحديدية، والإرادة الفولاذية.

ويتكرر توظيفها للقصص القرآني عندما قالت: "والحجر الذي رماه ابنك كان النبي داود قد وضعه في مقلاعه.."[133]، فقصة النبي داود الذي قتل بحجره الطاغية (جالوت)، فاستمدت القصة من قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِّ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُّ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِّ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَّ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[134].

فوظفت هذه الآية لتبين لنا الحالة الفلسطينية إبّان الانتفاضة المباركة، والتي استعمل فيه المقاومون الفلسطينيون الحجر والمقلاع في مواجهة الآلة العسكرية الصهيونية، فكان الحجر سلاحًا فاعلاً في رفع القضية

([132]) ينظر: زكي العيلة، المرأة في الرواية الفلسطينية، ط1، رام الله: منشورات مركز أوغاريت الثقافي للنشر والترجمة، 2003. ص 86.

([133])ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص 207.

([134]) البقرة، 2/ 251.

الفلسطينية إلى أولى اهتمامات العالم، وقد شبهت الكاتبة حجر الطفل الفلسطيني بحجر النبي داود- عليه السلام، فوجه الشبه بينهما في أن الأول قتل طاغيةً مستبدًا هو الملك (جالوت)، أما الثاني فقد حَيَّدَ الأسلحة الصهيونية المتطورة وجعلها غير فاعلة في مواجهة الطوفان الشعبي العارم، وقد وفّقت الكاتبة في هذا التوظيف، الذي خدم النص الروائي، وعمَّق الفكرة التي وصلت القارئ بصورة حية عمّا كان يحدث في انتفاضة الشعب الفلسطيني الذي كسر القرارات الإسرائيلية آنذاك.

وظفت الكاتبة الألفاظ القرآنية التي تحمل في طياتها معانٍ تفيد النص السردي للرواية، عندما قالت على لسان (أبو الطاهر): "دعونا من المزاح.. سمعت الكثير حول هذا الموضوع.. ولكن كيف؟؟ الجان من نار.. ونحن من طين؟"[135]، فهي تُعبِّر عن الحالة النفسية التي آلت إليها عند الناس في ذلك الزمن، وبأن الكثيرين كانوا يحيلون الظواهر الغريبة، والتي لا يجدون تفسيرًا لها إلا عند الجن، والغريب أنهم كانوا يفسرون قدرات الرجال الشجعان بأنهم من أبناء الجن، ولذلك فإن الكاتبة قد استخدمت هذا اللفظ على لسان إحدى الشخصيات لتقول لهم بأن الجن وحده يمثل الجن، ولكن الرجال هم من لحم ودم خلقوا من الطين،

([135]) ديمة السمان، برج اللقلق، 1/ 44.

فجاء التوظيف مناسبًا لحال السرد الروائي الذي تعزز به، ورفع من قيمته الفنية. ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾(136).

اقتبست من القرآن الكريم قولها: "وتذكر الآية الكريمة.. "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون" صدق الله العظيم"(137).

تحاول الكاتبة من خلال هذا التوظيف تبرير تصرفات (عبد الجبار)، الذي كان يأتيه جده بالحلم فيجزره ويؤنبه لدرجة أنه صار يراه في الحلم كالكابوس يأتيه على شكل جده الشهيد، ولدرجة أنه أصبح يتحكم به وبتصرفاته، فيقدم مؤونة أولاده للآخرين؛ ما سبب الضيق الشديد لدى زوجته (نفيسة)، التي وصل بها الأمر أن تركته لأوهامه وكوابيسه، فاقتبست الآية بحسب ورودها في القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(138).

---

(136) الرحمن، 55/ 15.

(137) ديمة السمان، م. س.، 1/ 114.

(138) آل عمران، 3/ 169.

obeikandl.com

استخدمت هذه الآية التي درج الناس على ترديدها أيام انتفاضة الحجارة، فقد استخدمها الخطباء من على المنابر أثناء تأبين الشهداء الذين كانوا يتساقطون يوميًّا كأوراق الخريف، وقد عايشت الكاتبة هذه الانتفاضة، فتأثرت بها، كما تأثر بها العالم أجمع، نتيجة سقوط الضحايا من الشعب الفلسطيني بالعشرات فاستفاد السرد الروائي من هذا التوظيف.

وفي محاولة لحث الناس على العمل والمثابرة نراها توظف الآية التي توفر في معانيها هذه القيمة السامية، على لسان أحد منظري الثورة العربية الكبرى في الحي بقولها: "ماذا تتوقعون.. والمثل يقول: لا يفلّ الحديد إلا الحديد(139).. فالدعاء لا يرفع الظلم عن المظلومين.. "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون".. صدق الله العظيم"(140)، فاستمدت اقتباسها من قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(141)، للتعبير عن الواقع الاجتماعي والسياسي الذي ساد في تلك الفترة، فترة انهيار الخلافة العثمانية من الداخل ومن الخارج، وقد

(139) ينظر : توظيف المثل الشعبي.

(140) ديمة السمان، برج اللقلق، 1/ 161.

(141) التوبة، 9/ 105.

أجادت في استخدام هذا التوظيف الذي خدم النص الروائي وساعد على توصيل الفكرة من ذهن الكاتبة إلى المتلقي.

وتكمل الكاتبة استعانتها باللفظ القرآني عندما تقول: "ما عليك سوى أن ترددي قول الله سبحانه.. فأنت سيدة مؤمنة طاهرة.. "وجعلنا من بين أيديهم سدًّا.. ومن خلفهم سدًّا.. فأغشيناهم فهم لا يبصرون.." صدق الله العظيم(142). استخدمت الكاتبة هذه الآية لتبين لنا الصورة الحياتية للمجتمع، زمن الصراع الفلسطيني الصهيوني الذي كان مدعومًا بشكل كامل من الإنجليز، وقد بينت لنا بأن الحالة وصلت إلى طريق صعب، لدرجة أن الناس اخذوا بالدعاء كملاذ أخير، بعد أن عدموا الحيلة للدفاع عن أبنائهم، وقد وردت الآية الكريمة التي وظفتها الكاتب في القرآن الكريم على هذا النحو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾(143).

كما نلاحظ أنَّ الكاتبة اقتبست الآية بصورتها في القرآن الكريم، ووضعتها في قالب خدم الصورة، التي أرادت الكاتبة رسمها للواقع الفلسطيني أثناء الصراع المستميت للدفاع عن الأرض أمام أعتى القوى

---

(142) ديمة السمان، م. س.، 1/ 180 و 193.

(143) يس، 36/ 9.

في ذلك الزمن؛ وهي بريطانيا العظمى التي ساندت القوات الهمجية الصهيونية. لكنها تستخدم اللفظ القرآني في غير مكانه بقولها: "قال الرجل: فذكِّر إن نفعت الذكرى.. والهدف نبيل"(144)، مقتبسة ذلك من الآية الكريمة: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾(145).

أقحمت اللفظ القرآني في الحوار إقحامًا، فلم ينسجم مع الصياغة الفنية للحوار، فظهر غريبًا عن بقية النص.

وتوفّق في توظيف اللفظ القرآني في موطن آخر، عندما تقول (نفيسة) لولدها (ليث) الذي باع نفسه للخطيئة، وسقط في مستنقع الخيانة، فهي تقول: "حب المال عند الإنسان كحب جهنم للخاطئين دومًا تقول هل من مزيد..؟"(146)، فقد جاء التوظيف منسجمًا مع فكرة الكاتبة وسردها، فخدم النص الروائي فنيًّا وموضوعيًّا، وقد ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾(147).

وما بين هذا وذاك تأتي الكاتبة على توظيف اللفظ القرآني توظيفًا مباشرًا حين تقول على لسان العميل (ليث) مخاطبًا رجل المخابرات

---

(144) ديمة السمان، برج اللقلق، 2/ 74.

(145) الأعلى، 87/ 9.

(146) ديمة السمان، م. س.، 2/ 104.

(147) ق، 50/ 30.

الكابتن (موريس) قائلاً: "الله خلق الدنيا في ستة أيام"[148]، حيث يريد (ليث) المماطلة، واكتساب الوقت، فيستخدم اللفظ القرآني أمام رجل المخابرات الذي لم يأبه به وبما يقول، ذلك إن رجل المخابرات يسير ضمن منهج مخطط له مسبقًا محدد بأمور لها علاقة بكل المحاور الزمانية والمكانية والأمنية، فإذا لم تتوفر بالعميل الذي يجنده لخدمة مخططاته، فإنه يستغني عنه ويصفيه بنفسه، وهذا ما أرادت الكاتبة التعبير عنه من خلال الحوار، فاستمدت الكاتبة هذا التوظيف من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[149].

ثانيًا: توظيف الحديث النبوي الشريف: استخدمت الكاتبة عبارة "جاءا إلى المسجد الأقصى لتقديس حجتهما بعد أن أديا فريضة الحج..."[150]، وهذا ما اعتاد عليه الناس منذ القدم، عندما يحجون إلى المسجد الحرام والمسجد النبوي، تبعًا لسنة النبي المصطفى- صلى الله عليه

---

[148] ديمة السمان، برج اللقلق، 2/ 121.

[149] يونس، 10/ 3.

[150] الضلع المفقود، ديمة السمان، ص9

وسلم- عندما يدعو المسلمين إلى زيارة المساجد الثلاثة الأهم على وجه الأرض، فقد قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: {لا تُشد الرِّحالُ إلاَّ إلى ثلاثةِ مساجدَ: مسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى}([151]).

أما لفظة تقديس فهي نسبة إلى مدينة القدس، وهي هنا تحدد المكان، وتعطيه أهمية كبيرة في روايتها ما يجعل القارئ يثق بالنص الذي بين يديه([152])، كما نلاحظ إشارة واضحة إلى أن الرحلة التي كان يقوم بها الحاج من المسجد الحرام إلى بيت المقدس كانت رحلة طويلة وشاقة على الحجاج، قالت: "كان التعب يبدو واضحًا على زوجها.. فقد كان أعجز من أن تتحمل شيخوخته مشاقَّ الرحلة.."([153])، فقد ذكرت لنا الكاتبة ذلك لإيجاد شخصية أساسية في روايتها وهي شخصية (عنبرة)، فمن خلال هذا الاستناد نجحت في خلق المبرر والأساس اللازم لتسلسل أحداث روايتها. واستخدمت الكاتبة اللفظ والمعنى المستمد من الحديث

([151]) سنن، ابن ماجة، رقم الحديث 1409، 2/ 524؛ الترمذي، الجامع الكبير، 1/ 358، رقم الحديث (326)؛ المناوي، فيض القدير، 6/ 523، رقم الحديث (9802).

([152]) ينظر: حفيظة أحمد، بنية الخطاب في الرواية النسائية الفلسطينية 1950-2000، ط1، رام الله: منشورات مركز أوغاريت الثقافي، 2007. ص127.

([153]) الضلع المفقود، م. س.، ص 9

الشريف بقولها: "للجائع والفقير حق في مال الغني"[154]، ورد هذا في قول ابن عباس: {إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذًا- رضي الله عنه- إلى اليمن فقال: ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم}[155]، فاستفاد النص من هذا التوظيف، خوصًا وأن السرد كان منصبًا على العلاقات الاجتماعية الإنسانية ما شكل عندها حجة شرعية مقنعة لتوضيح فكرتها القائمة على مساعدة الغني للفقير.

ويتكرر التوظيف الديني عند الكاتبة عندما تقول على لسان (عنبرة) في (الضلع المفقود): "المنطق يقول ابدأ بنفسك ثم بأخيك"[156]. ونجد المعنى هذا في قول أبي الزبير عن جابر قال: {أعتق رجل من بني عذره عبدًا له عن دبر فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ألك مال غيره فقال لا فقال من يشتريه مني فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوي بثمان

([154]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 28.

([155])ابن ماجة، سنن، حققه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه، بشَّار عوَّاد معروف، ط1، بيروت: دار الجليل، 1418/ 1998، باب الزكاة، 3/ 251 رقم الحديث(1783).

([156]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 32؛ تكرر هذا التوظيف في برج اللقلق، 1/ 107 و 119.

obeikandl.com

مائة درهم فجاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفعها إليه ثم قال: ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا يقول فبين يديك وعن يمينك وعن شمالك}([157]).

وعندما أرادت الكاتبة إزالة الفروق الطبقية بين الناس بقولها على لسان (عياش): "كلنا بشر.. والنبل لا يكون إلا في الأخلاق والمعاملة الحسنة."([158])؛ وذلك في رده على جده عندما قال له: "كيف وأنت من طبقة الفلاحين وهي من النبلاء؟؟"([159])، فاستمدت الكاتبة هذه القيمة الأخلاقية من أقوال الرسول- صلى الله عليه وسلم-: {يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، خيركم عند الله أتقاكم}([160]). تريد بذلك إظهار

([157]) مسلم، صحيح،997؛ البخاري، صحيح، 2034؛ الترمذي، سنن، 1219؛ النسائي، سنن، 4652؛ أبو داود، سنن، 3957؛ أحمد، مسند، 305/3.
http://hadith.al-islam.com/Page.aspx?pageid=192&BookID=27&PID=4580

([158]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص54.

([159]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص54.

([160]) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} 3300.
http://hadith.al-islam.com/Page.aspx?pageid=192&BookID=24&TOCID=2083

تغلغل الأفكار الطبقية في المجتمع الهندي، فالحوار كان بين الجد وعياش، الذي يدافع عن فكرة الكاتبة بأن الفروق الطبقية لا توافق الشرع الإسلامي كما جاء في حديث الرسول- صلى الله عليه وسلم- سابق الذكر.

كما يظهر تأثرها بالحديث عندما قالت: "المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف"([161]). ورد هذا المعنى في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قلْ قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان}([162]).

أرادت الكاتبة من خلال حوار (عياش) ومحبوبته (مريم)، الذي دار حول المجتمع الطبقي، أن تثبت أنه لا فرق بين إنسان وإنسان آخر إلا بما هو عليه من قوة علمية وأدبية وخلقية وعقلية، فالإنسان القوي هو الذي

([161]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص 68.

([162]) ابن ماجة، السنن، المقدمة، باب القدر، 1/ 102-103 رقم الحديث (79).

يثبت دوره الحقيقي في بناء مجتمعه، بعكس الإنسان الجاهل الضعيف الذي يكون دوره محدودًا.

واستخدمت الكاتبة معاني صريحة من الحديث النبوي الشريف عندما قالت: "فلا ترضى لغيرك ما لا ترضى لنفسك"[163]، مستمدة هذا المعنى من قول أنس رضي الله عنه نقلاً عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قوله: {لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه}[164].

وظفت هذا المعنى لتثبيت بأن على الإنسان التفكير بغيره كما يفكر بنفسه بالحقوق والواجبات، والابتعاد عن الأنانية المفرطة. كما وظفت الكاتبة اللفظ الديني المستمد من الحديث النبوي الشريف في قولها: "الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها"[165]، للحثِّ على العفو، بعد اكتشاف (عيَّاش) المتأخر بأن زوجته عائشة قد فرقت بينه وبين حبيبته (مريم). استقت هذا المعنى من الحديث الشريف: {قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له

---

[163] ديمة السمان، الضلع المفقود، ص75.

[164] الترمذي، الجامع الكبير، حققه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه، بشَّار عواد معروف، ط2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998، صفة القيامة والرقائق والورع، 4/ 284، رقم الحديث (2515)؛ ابن ماجة، السنن، المقدمة، 1/ 90 رقم الحديث (66).

[165] ديمة السمان، م.س.، ص247

obeikandl.com

بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها}([166])، وهذه رسالة من الكاتبة بأن التسامح والعفو أفضل الطرق للاستقرار وراحة البال. استندت في ذلك إلى الحديث الشريف، سالف الذكر، وأجادت في هذا التوظيف الذي عزز فكرتها، وجعلنا نعي ما ترمي إليه دون أن تشتت انتباهنا. ويتكرر توظيفها لأقوال النبي-صلى الله عليه وسلم- بقولها: "اجلس فقد آن الأوان أن تعطي نفسك حقها.. إن لبدنك عليك حقًّا"([167])، فاستمدت قولها من حديث النبي-عليه الصلاة والسلام، لكن بتبديل كلمة "لبدنك" مكان كلمة "جسدك"، وكان على الكاتبة الإبقاء على الكلمة نفسها لما فيها من قوة بلاغية، فالجسد هو كامل جسم الإنسان بينما البدن هو عضو من أعضاء الجسم،([168])؛ قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: {يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل فقلت بلى يا رسول الله قال فلا تفعل صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقًّا وإن لعينك عليك حقًّا وإن

([166]) أبو الفرج الحنبلي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق، محمود بن شعبان وآخرين، ط1، المدينة المنورة: مكتبة الغرباء الأثرية، 1417/ 1996، الإيمان، 1/ 154، رقم الحديث (42).

([167]) ديمة السمان، القافلة، ص36.

([168]) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ط3 (طبعة جديدة محققة)، بيروت: دار صادر، 2004، باب جسد، باب بدن.

لزوجك عليك حقًّا وإن لزورك عليك حقًّا وإن بحسبك أن تصوم كل شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدهر كله فشددت فشدد علي قلت يا رسول الله إني أجد قوة قال فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه قلت وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام قال نصف الدهر فكان عبد الله يقول بعد ما كبر يا ليتني قبلت رخصة النبي صلى الله عليه وسلم}([169]).

فبيَّنت مدى اهتمام (حسناء) بـ(صابر) الذي كان يهتم برجاله، لدرجة أنه نسي نفسه. كما أن الكاتبة تشير من خلال هذا الاهتمام إلى حالة الحب التي نشأت بين (حسناء) و(صابر)، وأظنها قد نجحت في ذلك.

وعندما قالت: "وكان الجميع سكوتًا كأن على رؤوسهم الطير.. فلم ينبس أحد ببنت شفة.. لا صوت سوى صوت المضغ رتيبًا وابتلاع الطعام زورًا.."([170])، فإنها تريد القول بأن عائلة (حسناء)، التي فقدت زوجها، أصبحت في حالة يُرثى لها، فالزوجة دائمة القلق، وسلبها

([169]) البخاري، الصحيح، كتاب الصيام، 1874؛ مسلم، صحيح، كتاب الصيام، 1159؛ الترمذي، سنن، كتاب الصوم، 770؛ النسائي، سنن، كتاب قيام الليل وتطوع النهار، 1630؛ أحمد، مسند، مسند المكثرين من الصحابة، 158/ 2؛ الدارمي، سنن، كتاب الصوم، 1752. -http://hadith.al islam.com/Page.aspx?pageid=192&TOCID=1253&BookID=24&PID=1878

([170]) ديمة السمان، القافلة، ص181-182.

التفكير بزوجها كل تركيز لدرجة أنها قررت السفر عبر الصحراء للبحث عن زوجها، وهذه صورة نمطية للعائلة الفلسطينية التي تفقد معيلها، سواء بالاستشهاد، أو الأسر، أو الغياب القسري، وبهذا فإن الكاتبة استطاعت التعبير عن هذه الحالة بصورة جيدة، واستخدامها للفظ الديني قد ساهم لإيصال الفكرة للقارئ، فاستمدت قولها من الحديث النبوي الشريف: عن أبي الزبير عن جابر قال: {خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر وكان لا يأتي البراز حتى يتغيب فلا يرى فنزلنا بفلاة من الأرض ليس فيها شجر ولا علم فقال يا جابر اجعل في أداوتك ماء ثم انطلق بنا قال فانطلقنا حتى لا نرى فإذا هو بشجرتين بينهما أربع أذرع فقال يا جابر انطلق إلى هذه الشجرة فقل يقل لك الحقي بصاحبتك حتى أجلس خلفكما فرجعت إليها فجلس رسول الله- صلى الله عليه وسلم- خلفهما ثم رجعتا إلى مكانهما فركبنا مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ورسول الله بيننا كأنما علينا الطير}([171]).

لقد استخدمت الكاتبة الألفاظ التي وردت عن الرسول محمد- صلى الله عليه وسلم- للتعبير عن فكرتها بطريقة يقبلها القارئ دون تردد، وقد درج هذا القول مثلاً على ألسنة العامة أيضًا؛ ويضرب للساكن الوادع،

([171]) ابن ماجة، السنن، الطهارة وسننها، 1/ 294 رقم الحديث (335).

ويوصف مجلس الرسول- صلى الله عليه وسلم- فيقولون: إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير.(172)

وظفت الكاتبة الألفاظ النابعة من التراث الإسلامي عندما قالت على لسان الراوي: "فرحت حسناء أيَّما فرحةٍ عندما جاءها البشير ينبئها بالخبر.. ونذرت لله أن تضحي بثلاثة خراف إذا أكمل الله عطاءه ومنّ على حمدان وسلطان بذكرين."(173)، وهذه إشارة إلى مقدار ما يتمناه الناس للذكور من الأبناء، وتفضيلهم على البنات، لدرجة أن الناس يقدمون النذور إذا ما تحقق لهم ذلك، وقد ورد في الأحاديث النبوية عن النذور عندما قال عبد الله بن عمر نقلاً عن الرسول- عليه الصلاة والسلام-: {إن النذر لا يقدم شيئًا ولا يؤخر وإنما يستخرج بالنذر من البخيل}(174).

ساعدها التوظيف على تصوير مقدار الإيمان الذي يتحلى به الناس في زمن الرواية الذي كان في الثلث الأول من القرن الماضي، فساهم في إثراء السرد الروائي وعزز من كثافته اللغوية. وقد وظفت الكاتبة الحديث

---

(172) ينظر: الميداني، مجمع الأمثال، صنعه قصي الحسين، طرابلس: دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع. 2/ 146.

(173) ديمة السمان، القافلة، ص198.

(174) ابن ماجة، الكفارات، 3/ 496 رقم الحديث (2122).

النبوي الشريف عندما قالت على لسان والدة (عناد): "أتؤمن بالخرافات يا عناد؟ إنه وهم يضللونك به.. فارجع إلى عقلك.. واذكر الله.. فما هذا إلا من عمل الشيطان.. كذب المنجمون ولو صدقوا"[175]. ورد معنى هذه الألفاظ في قول الرسول- عليه الصلاة والسلام-: {من أتى كاهنًا أو عرّافًا، فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم}[176]. لقد أرادت الكاتبة من هذا التوظيف أن تبين أهمية الإيمان بالله، وبأنَّ المنجمين هم كاذبون، ومن يصدقهم فقد كفر بما أُنزل على سيدنا محمد- عليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام-، وأن الجهل هو الذي يدفع الناس إلى اللجوء إلى الكهنة والمشعوذين، لأنهم لا يكونون بكامل وعيهم، مثل الذي يصيبه مسٌّ من الجنون والعياذ بالله، وحثت بذلك على الابتعاد عن هذا السبيل الذي ينتهي عادة بالندم.

وظفت القول الشائع والذي يشبه في معناه الحديث النبوي الشريف عندما قالت على لسان (مرجانة): "تفاءلي بالخير تجديه يا مولاتي"[177]. هذا القول يشبه في معانيه الحديث النبوي الشريف: {أن رسول الله صلى

([175]) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص105.

([176]) الترمذي، الجامع الكبير، الطهارة، 1/ 178 رقم الحديث (135)؛ ابن ماجة، الطهارة، 1/ 506 رقم الحديث (639).

([177]) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص169.

الله عليه وسلم قال لا عدوى ولا طيرة وأحب الفأل قالوا يا رسول الله وما الفأل قال الكلمة الطيب}([178]).

وظفت معنى الحديث الشريف، لتعزيز الأمل في نفس الأميرة، التي كانت تنتظر عودة عناد من مهمته الخطرة، لتُظهر حالة القلق التي كانت تعيشها الأميرة، وقد أفادت باستخدامها هذا القول المستنبط من الحديث النبوي الشريف، بأن الفأل كلمة طيبة نعيشها، ونمارس معانيها التي تعزز مقدرتنا على الصمود والانتظار، فالإنسان لا يمكن أن يعيش حياته بلا أمل.

كما وظفت معاني الحديث الشريف بقولها: "الزواج طيبة وليس غصيبة".([179]). ورد هذا المعنى في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: {لا تُنكح الثيِّب حتى تُستأمر ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن وإذنها الصموت}([180]).

تُبيِّنُ بهذا التوظيف، حق المرأة باختيار شريك حياتها، دون ضغط عليها، فبينت وجهة نظرها من خلال إسقاطها على شخصية الرواية

([178]) الترمذي، الجامع الكبير، السير، 3/ 258 رقم الحديث (1615)؛ ابن ماجة، السنن، الطب، 5/ 178-179 رقم الحديث (3537).

([179]) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص31.

([180]) الترمذي، الجامع الكبير، النكاح، 2/ 400 رقم الحديث (1107).

obeikandl.com

(نفوذ)، وبهذا التوظيف استطاعت الكاتبة تمرير أفكارها، وأظنها نجحت بذلك، ناهيك عن خدمة هذا التوظيف لبنية النص الفني للرواية، فكان الانسجام واضحًا بين النصّ الأصلي وبين التوظيف للمعاني الشريفة.

وفي قولها: "لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين"[181]، تبين مدى تأثر (عبد الجبار) بما حصل معه في باب الخليل، وبأنه يرفض الذهاب للعمل هناك خوفًا من تعرضه للمهانة من جديد، فيبرز لنا معنى الحديث الشريف: {لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين}[182]
الذي اعتمدت عليه في توضيح الصورة الفنية، فأجادت بذلك، واستفاد النص من هذا التوظيف، فنيًّا ولغويًّا.

توظيف التراث الديني النصراني

ورد في النص الروائي ذكر للعشاء الأخير، في قولها:"فكانوا النبع الذي يغرف منه الجميع مالاً ودواءً وشفاءً وغذاءً حتى ظن الجميع أن آل

---

[181] ديمة السمان، برج اللقلق، 1/ 35 و 183.

[182] ابن ماجة، سنن، الفتن، 5/ 466 رقم الحديث، (3982).

العطار كالعشاء الأخير الذي أنزل على المسيح بن مريم عليه السلام.. كلما أخذوا منه زاد عطاؤه.."([183]).

لقد أخفقت الكاتبة عندما أقحمت عبارة "العشاء الأخير" في نصها، لا لشيء إلا لأن ذلك لا يوافق واقع الحال، حيث إن الكاتبة كانت مسترسلة في خطاب تصف فيه على لسان (شداد) الحالة التي وصلت إليها عائلة (سليم العطار)، وفجأةً، نقلتنا إلى قضية أخرى لا تمتّ إلى نص الرواية بصلة، فالعشاء الأخير لا يزيد كلما أخذوا منه كما تدعي الكاتبة عندما قالت: "كلما أخذوا منه زاد عطاؤه.."([184])، فقد ذُكر في الأناجيل أن سيدنا عيسى- عليه السلام- عندما التقى الاثني عشر رسولاً، قال لهم: اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم ثم أعطاهم الخبز، وقدم لهم النبيذ بكأسه ليشربوا منه جميعًا قبل أن يقدم نفسه قربانًا حيث يسفك دمه حماية لهم([185]).

([183]) ديمة السمان، الضلع المفقود، ص161؛ تكرر هذا التوظيف في برج اللقلق، 1/ 105 و 144.

([184]) ديمة السمان، م.س.، ص161.

([185]) ينظر: إنجيل لوقا، 22/ 14-20.

وظفت الكاتبة قصة النبي موسى-عليه السلام- عندما قالت على لسان (عناد): "لا تستغربوا ما دامت الأعمار بيد الدّيان.. حكايتي غريبة لا يستوعبها عقل إنسان.. ألم تُلقِ أم النبي موسى بولدها في اليم فأنجاه الله؟؟"([186]).

وردت القصة في كتاب العهد القديم: "ذهب رجل إلى بيت لاوي وأخذ بنت لاوي، فحبلت المرأة وولدت ابنًا، ولما رأته حَسَنًا خبأته ثلاثة أشهر، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سفطًا من البردي وطلته باللون الأحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به. فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت حواريها ماشيات على جانب النهر، فرأت السفط بين الحلفاء، فأرسلت أمتها وأخذته، ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي، فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين."([187]).

([186]) ديمة السمان، الأصابع الخفية، ص49

([187]) العهد القديم، الخروج، الإصحاح الثاني، 1-7؛ وقد وردت القصة في القرآن الكريم، طه، 20/ 39، القصص، 28/ 7.

بينت بهذا التوظيف مدى البؤس الذي وصل إليه (عناد) عندما خرج من البحر ولم يجد من يمد له يد العون، فأُغلقت الأبواب في وجهه، بهذا تعمل مقارنة بين (عناد) وخروجه من البحر، وبين قصة سيدنا موسى- عليه السلام-، إلا أن توظيفها هنا جاء مُقحمًا.

وظفت ما تحمله من موروث ثقافي عندما قالت على لسان (عناد): "فثر يا جبل بركانًا.. وادفن الأحياء.. والفظِ الأموات وهدّم.. فما أخطأ شمشون حين دمر المعبد.."[188]

وقد ورد عن سيرة شمشون في العهد القديم: "فولدت المرأة ابنًا ودعت اسمه شمشون، فكبر الصبي وباركه الرب"[189].

وذكر أن شمشون قد تزوج من بنات فلسطين: "وأخبر أباه وأمه وقال قد رأيت امرأة في تمنة من بنات الفلسطينيين فالآن خذاها لي امرأة، فقال له أبوه وأمه أليس في بنات إخوتك وفي كل شعبي امرأة حتى أنك ذاهب لتأخذ امرأة من الفلسطينيين الغُلفِ، فقال شمشون إياها خذ لي لأنها حسُنت في عيني"[190].

---

[188] ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص103.

[189] العهد القديم، قُضاة، الإصحاح الثالث عشر، 24.

[190] العهد القديم، قُضاة، الإصحاح الرابع عشر، 1.

وأصبح شمشون كاي واحد من الناس بعد أن حلقت (دليلة) شعره الذي كان مصدرًا لقوته فأسره الفلسطينيون وقلعوا عينيه، ولكن بعد فترة نبت شعره من جديد وعادت له قوته فانتقم من الفلسطينيين وقتل منهم في مماته أكثر مما قتل في حياته:

"وقبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان البيت قائمًا عليهما وأسند عليهما الواحد بيمينه والآخر بيساره، وقال شمشون لتمت نفسي مع الفلسطينيين، وانحنى بقوة فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذي فيه فكان الموتى الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته..."[191].

وظفت الكاتبة قصة شمشون لتبين لنا الحالة التي وصلت عند (عناد) الذي يمثل الثائر الفلسطيني، وهو هنا واحد من الشعب الذي يعاني وطأة الظلم المنصب على شعب فلسطين، الأمر الذي يدعو كل فرد من أفراد الشعب لمقاومة الاحتلال، ولا بأس أن يعرض نفسه للمخاطر في سبيل تحقيق مبتغاه، فقد فعلها شمشون فيما مضى وهو لم يخطئ عندما هدم المعبد على من فيه فقتل كثيرين وقتل نفسه.

([191]) العهد القديم، قُضاة، الإصحاح السادس عشر، 29-31.

obeikandl.com

ترى هل تبرر الكاتبة هنا كل أساليب الصراع مع العدو، وخصوصًا ما يتعلق بالعمليات الاستشهادية؟ فهذا شمشون اليهودي الذي قتل نفسه بهدم المعبد عليه وعلى من فيه من الفلسطينيين قبل آلاف السنين، وهو جزءٌ من الثقافة اليهودية، فلماذا ينكرون ذلك على غيرهم.

أفادت الكاتبة السرد الروائي بهذا التوظيف.

وظفت الكاتبة معلوماتها التاريخية عندما أشارت إلى الكنعانيين قائلة: "أحد أجدادك الكنعانيين"(192).

ومن أقدم الكتب التي ورد ذكر الكنعانيين فيها هو العهد القديم (التوراة) وقد ورد ذكرهم على النحو الآتي:

"أبرام سكن في أرض كنعان، ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم. وكان أهل سدوم أشرارًا وخطاة لدى الرب جدًّا"(193).

تُشير الكاتبة إلى أصول الشعب الفلسطيني عبر التاريخ، وبأن هذا الشعب موجود على أرض كنعان من العصور القديمة، خصوصًا عندما

---

(192) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص8؛ تكرر هذا التوظيف في جناح ضاقت به السماء، ص62.

(193) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثالث عشر، 18-19؛ ينظر: رجا عبد الحليم عرابي، الكافي في تاريخ القدس، 93-102.

obeikandl.com

قالت: "صاحب السراج أحد أجدادك الكنعانيين.. جاء هنا ليدرس الحكمة من كتب الأقدمين.. على ضوء هذا السراج المنير.. أيام كانت الكتابة على العظام والجلود"(194). وتشير التوراة في هذا السياق إلى أن اليهود قد حضروا إلى فلسطين (أرض كنعان) وكان فيها الكنعانيون الفلسطينيون، فقد ذكرتهم التوراة بالاسم: "فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط، وكان الكنعانيون والفرريون حينئذ ساكنين في الأرض، فقال أبرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاني ورعانك، لأننا نحن أخوان، أليست كل الأرض أمامك اعتزل عني، إن ذهبت شمالاً فأنا يمينًا، وإن يمينًا أنا شمالاً"(195).

وظفت الكاتبة هذا العبق التاريخي، واعتمدت عليه في بناء سردها الروائي، فجعلت منه أساسًا لذلك، وقد أجادت في هذا التوظيف وبينت لنا مقدرتها على دمج القديم بالحديث، هناك قبل آلاف السنين استعمرت أرض فلسطين الكنعانية من قبل يهود، وهنا في هذا الزمن الصعب، فقد استعمرت بلاد فلسطين الكنعانية من اليهود أنفسهم، فالكاتبة مزجت هذا الزمن المترامي الأبعاد في سردها الروائي.

---

(194) ديمة السمان، جناح ضاقت به السماء، ص8.

(195) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثالث عشر، 7 – 9.